



دراسات إسلاميّة

مجلّة علميّة سنويّة محكمة

السنة الأولى - العدد الأول / ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الشعوبية خطاب الرفض في الثقافة العربية والإسلامية

د. فؤاد شيخ الدين عطار

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

مقدمة :

جاء في القاموس المحيط : " والشعبوية باليمن ، وبالضم محتقر أمر العرب " (١) وفي المصباح المنير : " والشعبوية بالضم فرقة تفضل العجم على العرب " (٢) وفي لسان العرب : " وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي - أضافوا إلي الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصارى. والشعوب فرقة لا تفضل العرب على العجم. والشعوبي الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم " (٣).

يظهر مما سبق أن لفظ " الشعبوية " يطلق على فريقين من الناس : فريق لا يفضل العرب على العجم ، وآخر يحتقر أمر العرب ، والفريقان من غير العرب بالضرورة. يقف الفريق الأول موقفاً - على السواء - بين الأمم. " فلا عربى أفضل من عجمى لأنه عربي ولا أعجمي أفضل من عربى لأنه أعجمي. وليست العربية ولا الأعجمية عاملاً من عوامل التفاضل. إنما عامل التفاضل الدين وحده عند قوم والشرف وسمو الخلق عند آخرين " (٤) على حين يحتقر الفريق الثاني أمة العرب ويصغر من شأنها ويرى أن ألا حظ لها في الحضارة والعلم والمكارم مقارنة بالأمم الأخرى من فرس وروم ويونان وهند وغيرهم.

جاء في العقد الفريد عند الحديث عن حجج الشعبوية على العرب : أخبرونا إن قالت لكم العجم : هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكاً أونوبة ؟ فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم : فإن لنا ملوك الأرض كلهم من الفراعنة والنمارة والعمالقة والأكاسرة

(١) القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي دار الجيل - بيروت - (د ت) ٩١.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي - أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي. المجلد الأول. المكتبة العلمية بيروت لبنان - (د ت) ٣١٤/١.

(٣) لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري دار المعارف - مصر (د ت) ٢٢٧٠/٤.

(٤) ضحى الإسلام - تأليف أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان طبعة أولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م ٤٤/١.

والقيصرية فهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان.... أم هل كان لأحد مثل ملك الإسكندر... ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التي أسسها في قاع البحر وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجلتها لكفى ، وكيف ومنا ملوك الهند... وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر الإنبوة ، فإن منا الأنبياء قاطبة من لدن آدم ملخلاً أربعة : هوداً وصالحاً وإسماعيل ومحمداً... ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات : مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة... ومثل فلسفة الروم في ذات الخالق ، والقانون ، والأسطراب ، الذي يعدل به النجوم ، ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصياها ، ويقمع ظللها ، وينهي سفيهاها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركتها فيه العجم وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعرض. فما الذي تفخر به العرب على العجم وإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض : فرجالها موثوقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل فإذا أدركهن الصريخ فاستنقذن بالعشي ، وقد وطنن كما توطأ الطريق المهيح ، فخر بذلك الشاعر... فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الإسلام ، وذلك أن النبي ﷺ بعث إلي الأحرر والأسود من بني آدم ، وكان أول من تبعه حر وعبد ، واختلف الناس فيهما ، فقال قوم : أبوبكر وبلال ، وقال قوم : علي وصهيب. ولما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم صهيياً على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس ، وقيل له : استخلف فقال : ما أجد ما أستخلف... ثم قل : لو أدركت سالماً مولاً أبى حذيفة لما شككت فيه.^(٤) إلى أقوال أخرى في جملة ما احتجوا به على العرب ونقضوا عليهم بها مكارمهم الأولى كالطعن على الأنساب التي تعد من مفخر العرب : " قالت الشعوبية : إنما كانت العرب في الجاهلية

(٤) العقد الفريد لابن عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - شرح إبراهيم الأبياري - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان (د ت) - الجزء الثالث الصفحات ٤٠٧ - ٤١٠.

ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدرى أحدهم من أبوه“ (١)

على أن من العرب من ذهب إلى هوان أمر العرب في جاهليتها وأن الإسلام أنقلهم من هوان عربض وضياح محقق - روى عن قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿... وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] : ” كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاهم عيشاً وأبينهم ضلالة ، وأعراهم جلوداً ، وأجوعهم بطوناً ، معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس الروم ، لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه من عاش منهم عاش شقياً ومن مات ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً يومئذ من حاصر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق فيها شأناً منهم حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فوَرثكم الكتاب وأحل لكم به دار الجهاد ووضع لكم به من الرزق وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس“ (٢)

(١) نفسه ٤١٤/٣.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري دار الفكر بيروت لبنان ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م مجلد الثالث ٢٥/٤.

دواعي الشعوبية :

يمكن إرجاع دواعي الشعوبية ودوافعها إلى العصبية سواء أكانت من العرب أو من الموالى.

أولاً - عصبية العرب :

أدى انتصار العرب على الفرس والروم جميعاً في زمن قياسي إلى الشعور بالتميز والزهو " وغلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز ، ليس من جنسه دم الفرس والروم وأشباههم ! وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة ، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود. وكان الحكم الأموي مؤسساً على هذا النظر ! والحق أن العرب في هذا لم يطيعوا الإسلام في تعاليمه ! " ^(١) وجاء في البيان والتبيين : " أما الخواص الخالص فإنهم قالوا : العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة والأخلاق والشيم واحدة... فإذا بعث الله عز وجل نبياً من العرب فقد بعثه إلى جميع العرب وكلهم قومه ، ولأنهم جميعاً يد على العجم " ^(٢)

نستطيع أن نتلمس مظاهر عصبية العرب على العجم في جملة من المواقف منها مايلي :

(١) جاء في كتاب الأغاني : " وقف رجل من بني زيد شريف لا أحب أن أسميه على بشار فقل له : يا بشار قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل " ^(٣) ولاذنب لبشار إلا أنه رغب بنفسه وقومه عن الولاء إلى غير أصولهم وأنسابهم ، فعد الرجل الشريف هذه الرغبة ذنباً عظيماً !

^(١) ضحي الإسلام/٢٥.

^(٢) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق فوزى عطوى دار صعب بيروت لبنان ، (د ت) ، الأجزاء الثلاثة مجتمعة ٥٢٤/٣.

^(٣) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - تحقيق إبراهيم الأبياري - مؤسسة دار الشعب ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ١٠٤٩٣.

(٢) روي عن أحمد بن خالد أنه قل : أنشدت الأصمعي قول بشار :

وَدَعَانِي مَعَشَرُ كُلِّهِمْ حُمُقٌ دَامَ لَهُمْ ذَاكَ الْحُمُقُ
لَيْسَ مِنْ جُرْمٍ وَلَكِنْ غَاظَهُمْ شَرَفِي الْعَارِضُ قَدْ سَدَّ الْأَفُقُ

فاغتاز الأصمعي فقال : " ويلي على هذا العبد القن بن القن " (١١)

ومبعث غيظ الأصمعي - على ما يبدو - هو حديث بشار عن شرفه الذي سد الأفق ، وما هو في نظر الأصمعي إلا عبد من عبد ، هذا وقد كان الأصمعي عربياً من كبار علماء الأدب والرواية.

(١) جاء في الأغاني كذلك : " دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقل الأعرابي : من الرجل ؟ فقالوا رجل شاعر ، فقل : أمولى هو أم عربي ؟ قالوا : بل مولى ، فقل الأعرابي : وما للموالى وللشعر " (١٢)

(٢) جاء في عيون الأخبار " وقل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجل الدعوة حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم : ... ولكن عليكم بحراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر... وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحابز الأتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبيّة العشائر ولم يزلوا يذلّون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون الدول " (١٣) فهذا نصر في الذل الذي تعرض له عجم خراسان والخوان الذي كانوا عليه.

(٣) قل ابن عبد ربه : " وقل ابن أبي ليلى : قل لى عيسى بن موسى ، وكان جائراً شديداً العصبية : من كان فقيه البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن ، قل : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قل : فماهما ؟ قلت : موليان ، قل : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وسليمان

(١١) الأغاني ١٠٤٦/٣.

(١٢) نفسه ١٠١٢/٣.

(١٣) عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - دار الكتاب العربي بيروت لبنان - (د ت) ص ٢٠٤.

بن يسار، قل : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ، قل : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح ، قل : فما هؤلاء ؟ قلت : موالى فتغير لونه ، ثم قل : فمن أئمة أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى وابن أبي الزناد قل : فما كانا ؟ قلت : من الموالى. فاريد وجهه ثم قل : فمن كان فقيه اليمن قلت : طاووس ووهب وهمام ابنا منبه ، قل : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالى. فانفتحت أوداجه وانتصب قاعداً... ثم قل : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قل : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عيينه وعمار بن أبي سليمان ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت : إبراهيم والشعبي ، قل : فما كانا ؟ قلت : عربيان ، قل : الله أكبر ، وسكن جائشه ^(١٤).

(٤) جاء في المصدر السابق : " وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من أهل الموالى يصلي به ، فقالوا له في ذلك ، فقل : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه " ^(١٥).

(٥) وجاء فيه أيضاً : " وكانوا يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى.... وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى موالها ، فإن رضي زوج والأرء فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواله فسخ النكاح " ^(١٦).

(٦) روى أن رجلاً من الموالى خطب بنتاً من أعراب بني سليم وتزوجها. فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة ووالها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ، ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ! فقل محمد بن بشير :

قَضَيْتَ يَسْنَةً وَحَكَمْتَ عَدْلًا وَلَمْ تَرِثِ الْحُكُومَةَ مِنْ بَعِيدٍ
وَفِي الْمُنْتَيْنِ لِلْمَوْلَى نِكَالٌ سَلَبَ الْحَوَاجِبِ وَالْخُدُودِ
فَهَلْ إِذَا كَافَأْتَهُمْ بَنَاتُ كِسْرَى يَجِدُ الْمَوَالَى مِنْ مَزِيدٍ

(١٤) العقد الفريد ٤١٨٣.

(١٥) نفسه ٤١٥٣.

(١٦) نفسه.

فَأَيُّ الْحَقِّ أَنْصَفُ لِلْمَوَالِي مِنْ إِصْهَارِ الْعَبِيدِ إِلَى الْعَبِيدِ^(١٧)

هذا نهج السلطان كما رأيت ، ومثله ما يروى من شدة الحجاج بن يوسف على الموالى : ” فأقبل على الموالى - يعني الحجاج - وقال : أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها “^(١٨)

(١) لما قبض الحجاج على سعيد بن جبير ، وكان قد خرج مع ابن الأشعث ، قال له : أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا أعرابي فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى ، قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا : لا يصلح القضاء إلا لعربي ! فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمرته ألا يقطع أمراً دونك ! قال : بلى ، قال : أومجعلتك في سمار وكلهم من رؤوس العرب^(١٩) ؟ وكل كلامه ينث عما تحته من عصبية.

(٢) دخل أعرابي من بنى العنبر على سوار القاضي فقال : إن أبي مات وتركني وأنا لى ، وخط خطين ، ثم قال : وهجيناً ، ثم خط خطأ ناحية ، فكيف يقسم الملك ؟ فقال له سوار : هاهنا وارث غيركم ؟ قال : لا ، قال : فالملك بينكم أثلاثاً قال : ما أحسبك فهمت عني ، إنه تركني وأخي وهجيناً فكيف يأخذ الهجين كما أخذ أنا وكما يأخذ أخى ؟ قال : أجل ، فغضب الأعرابي ثم أقبل على سوار ، فقال : والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدهناء ، قال سوار : ” لا يضرني ذلك عند الله شيئاً “^(٢٠) فقد تعصب على ابن أبيه والقاضي جميعاً !

(٣) جاء في العقد : ” وقال زياد : دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال : إني رأيت هذه الحمراء - يعني الموالى - قد كثرت وأراها قد طعنت على السلف ، وكأنني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل

(١٧) ضحى الإسلام ٢٦/١.

(١٨) العقد الفريد ٤١٩٣..

(١٩) ضحى الإسلام ٢٧/١.

(٢٠) العقد الفريد ٤١٩٣.

شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ ^(٢١) هذه الرواية - إن صحت - دليل على منتهى العصبية !

وقد سخر الجاحظ من مقالة لأبي بكر الشيباني : " كنت أسيراً مع بني عم لي من بني شيبان - وفينا من موالينا جماعة - في أبدي التغالبة ، فضربوا أعناق بني عمي ، فكنت والذي لا إله الا هو أرى دم العربي ينماز من دم المولى حتى أرى بياض الأرض بينهما " ^(٢٢)

على أن الجاحظ تعصب - وهو خير محجي - على الأفارقة دون غيرهم من الموالى - يقول : " إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم ، والباقون همج وأشبه همج " ^(٢٣)

وفي هؤلاء الهمج - في رأي الجاحظ - ملوك الحبشة والنوبة والفراعنة ! ويضيف قائلاً : وقال حكيم بن عياش :

ألم يك ملك أرض الله طراً لأربعة له متميزينا
لحمير والنجاشي وابن كسرى فيقصر غير قول الممترينا

فما أدرى بأى سبب وضع الحبشة في هذا الموضع... وأما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان ^(٢٤) بل هو إن شاء الله - فوق هذا المكان في مقعد صدق عند ملك الملوك

على أن العرب لم يكونوا سواء في مصيبتهم على العجم " فقد كانت هناك طائفة كبيرة من خيارهم تدين بتعاليم الإسلام ، وتجعل قياس الفضل التدين لا الدم ، فقد كان على بن أبي طالب : لايفضل شريئاً على مشروف ولا عربياً على عجمي " ^(٢٥) وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : " أمتنى رجلاً ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ، إن سالماً كان شديد الحب لله لو لم

(٢١) نفسه ٤١٦/٣

(٢٢) البيان والتبيين ٤١٩/٣

(٢٣) نفسه ٨٧/١

(٢٤) نفسه ٢٠٠/١

(٢٥) ضحى الإسلام ٢٦/١

يخف الله ما عصله^(٢٦) وقد تقدم رأى عمر رضي الله عنه في سالم وأنه لو أدركه لاستخلفه ! قل الجاحظ : " وهو الذي قل - يعني سهيل بن عمرو - يوم خرج اذن عمر وهو بالباب وعيينه بن حصن والأقرع بن حابس وفلان وفلان فقل الأذن : أين بلال ، أين صهيب ، أين سلمان ، أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقل سهيل : لم تتمعر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا^(٢٧) هذا معيار أهل الصلاح والاستقامة رحمة الله عليهم أجمعين.

ثانياً : عصبية الموالى :

لم تكن عصبية الموالى بالقوة التي كانت عليها عصبية العرب ، ذلك أنهم كانوا يشعرون بغير قليل من الذل والهوان ، وهذا ما لا يكون معه شديد عصبية إلا من أصحاب النفوس الكبيرة وذوى الإسهامات الوافرة في المجتمع من أمثال الكتاب والشعراء. على أنهم تعصبوا على العرب معتمدين على جملة من العوامل ، فيمايلي بعضها :

- (١) ذهبوا إلى أن ملوك الأرض أجمعين كانوا من العجم^(٢٨) : أكاسرة الفرس ، القيصرية ، النجاشي ، الإسكندر المقدوني وغيرهم من ملوك الأرض.
- (٢) ذكروا أن أنبياء الله تعالى كلهم من العجم إلا أربعة من العرب.^(٢٩)
- (٣) تعرضوا لما كان يقع من العرب في الجاهلية من سبي لنساء بعضهم البعض ومثلوا له بما وقع يوم رحرحان وسبي ابن هبولة الغساني لأمرأة الحارث بن عمرو الكندي وسبي بني سليم لريحانة أخت عمرو بن معديكرب.^(٣٠)
- (٤) ذكروا أن النكاح كان يقع عند العرب أحياناً بلا عقد ولا استبراء - فكيف يدرى الرجل من أبوه ؟^(٣١)

(٢٦) البيان والتبيين ٤١٦٣.

(٢٧) نفسه ١٦٧١.

(٢٨) العقد الفريد ٤٠٧٣.

(٢٩) نفسه ٤٠٨٣.

(٣٠) نفسه ٤٠٩٣.

(٣١) نفسه ٤١٤٣.

وقد ورد في كتاب الأغاني " وكان شديد الشعب والعصبية على العرب - يعني
ديك الجن - يقول : ما للعرب علينا فضل جمعنا وإياهم ولادة إبراهيم ﷺ ، وأسلمنا
كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلاً منا قتل به ، ولم لمجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ
جمعنا الدين " (٣) ولا أرى فيما قل تشعباً ولا عصبية على العرب ولا على غيرهم من
الأمم فليس ههنا إلا دعوة إلى مبدأ السواء بين الناس من عرب وعجم وهو المبدأ الذي
جاء به الإسلام !.

أدوات الشعوبية :

اعتمدت الشعوبية على أداتين رئيسيتين هما : تصنيف الكتب ونظم الشعر.

أولاً : تصنيف الكتب :

تصدى لتصنيف الكتب المتعلقة بقضايا الشعوبية طائفة من العلماء نذكر منهم
على سبيل المثال : أبا عبيدة معمر بن المثنى ، الهيثم بن عدى ، عبد الله بن المقفع ، سهلاً
بن هرون ، وعلان الشعوبي.

١- أبو عبيدة معمر بن المثنى :

قل عنه ابن النديم : " ولما مات لم يحضر جنازته أحد لأنه لم يكن يسلم عليه
شريف ولا غيره ، وعمل كتاب المثلث " (٣) وكان أبو عبيدة من علماء الأدب واللغة
والرواية ويعد من أشهر من رموا بالشعوبية. قل أبو الفرج : وكان أبو عبيدة يقول :
يعجبني من شعر أبي نواس قوله :

بَنَيْنَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ
فَلَوْ رُدَّ فِي كِسْرَى ابْنِ سَاسَانَ رُوحُهُ إِذْنٌ لَأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ (٣٤)

(٣١) الأغاني ٤٩٢٥/١٤.

(٣٢) الفهرست لأبن النديم - ضبط وشرح د. يوسف الطويل منشورات محمد علي بيضون -
دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - (د. ت) ص ٨٣.

(٣٣) الأغاني ٩٨٦٦/٢٩.

٢- الهيثم بن عدى :

قال عنه ابن النديم : " وله من الكتب المصنفة كتاب المثلث ^(٣٥) وقال أيضاً : " وكتاب تأريخ العجم وبني أمية وكتاب المثلث الصغير وكتاب المثلث الكبير ، وكتاب مثالب ربعة... وكتاب من تزوج من الموالي في العرب وكتاب أسماء بغايا قریش في الجاهلية وأسماء من ولدن... ، وكتاب أخبار الفرس ^(٣٦) " .

٣- علان الشعوبي :

يقول عنه ابن النديم : " وللبرامكة عمل كتاب الميدان في المثلث الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها... ويحتوى على مثالب قریش ، صناعات قریش وتجاراتها ، مثالب تيم بن مرة... مثالب بنى أسد بن عبد العزى ، مثالب بني مخزوم ... مثالب سهم ، مثالب جمعة ، مثالب سامة بن لؤى ، مثالب عبد الدار بن قصي ^(٣٧) " . ثم عدد جميع بطون قریش ومعظم قبائل العرب الأخرى من قيس ومن يمن !.

٤- عبد الله بن المقفع :

جاء في كتاب عيون الأخبار : مر عبد الله بن المقفع ببيت النار فقال :
يا بيت عاتكة التي أتعزل حذر العدا وبها الفؤاد موكل ^(٣٨)
هذا منتهى الشعوبية ، إذ أعلى درجاتها الخروج عن الدين جملة ، وأدناه - كما زعموا - التفريق بين الإسلام والعرب ^(٣٩) ؟ ؟ .
وقد يتساءل متسائل : لماذا نقل عبد الله بن المقفع كتباً فارسية إلى العربية ؟ هل كان يتشعب بهذا ؟ " منها كتاب خدا ينامة في السير ، وكتاب آئين نامه... ، وكتاب كليله ودمنة ، وكتاب مزدك ، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان ^(٤٠) " .

(٣٥) الفهرست ١٥٨.

(٣٦) نفسه ١٦٠.

(٣٧) نفسه ١٧٠.

(٣٨) عيون الأخبار ص ٥١.

(٣٩) ضحي الإسلام ٢٦١.

(٤٠) الفهرست ص ١٩٠.

٥- سهل بن هرون :

جاء في الفهرست عن سهل بن هرون : " وكان حكيماً فصيحاً شاعراً فارسي الأصل ، شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل " ^(١٩)

وعلى الجملة فقد اتخذت الشعوبية تصنيف الكتب أداة أساسية من أدواتها : كتب تعرضوا فيها لمثالب العرب والظعن على أنسابها ، وأخرى بينوا فيها مناقب العجم عامة والفرس خاصة. إذ كان معظم الشعوبيين من الفرس.

وقد صنف الزبير بن بكار القرشي من الكتب : كتاب أخبار العرب وأيامها ، وكتاب نسب قريش وأخبارها. كأنه كان يرد على الشعوبية وينتصر للعرب. ^(٢٠)

ثانياً : الشعر :

كان الشعر من أقوى أدوات الشعوبية ، فهو - وإن لم يكن يتسع للأفكار والمبادئ اتساع الكتب المصنفة - عرضة للتداول والانتقال السريع من لسان إلى آخر. كما أنه أقوى أثراً وأبقى ذكراً. ولهذا خلد في سماء الشعوبية أسماء مثل بشار وأبي نواس وإسماعيل بن يسار وعلى بن الخليل وغيرهم.

جاء في الأغاني : كان لعلى بن الخليل الكوفي صديق من الدهاقين يعاشره ويبره ، فغلب عنه مدة طويلة وعاد إلى الكوفة وقد أصاب ملاً ورفعة وقويت حاله ، فادعى أنه من تميم ، فجاء على بن الخليل فلم يأذن له ، ولقيه فلم يسلم عليه فقال يهجوهُ :

يَروُحُ بِنَسَبَةِ المولى وَيُصْبِحُ بِدَّعِي العَرَبَا
فَلا هَذا وَلا هَذا لَكَ يُدْرِكُهُ إِذَا طَلَبَا ^(٢١)

وإنما ادعى أنه من تميم هوان أمر الموالي حينئذ فتعرض للهجاء. ولم يكتف الشاعر بهجاء من ادعى نسب تميم ولكنه عرض بتميم وبدאותها وخشونة عيشها بل عرض بقيم البداوة على الجملة ، يقول :

^(١٩) نفسه ص ١٩٢.

^(٢٠) نفسه ص ١٧٧.

^(٢١) الأغاني ٥٠٥٢/١٤.

وَقَدْ أَبْصَرْتُهُ دَهْرًا طَوِيلًا يَسْتَهِي الْأَدْبَا
فَصَارَ تَشْبُهًا بِالْقَوْمِ حِلْفًا جَافِيًا جَشِيئًا
إِذَا ذُكِرَ الْبَرِيرُ بَكَى وَأَبْدَى الشُّوقَ وَالطَّرْبَا
وَلَيْسَ ضَمِيرُهُ فِي الْقَفِّ وَمَا إِلَّا التَّيْنُ وَالْعَيْنَا^(٤٤)

أما بشار فإن عصبية على العرب واضحة تمام الوضوح فقد تقدم أن عربياً قل له: "يا بشار قد أفسدت علينا موالينا تدفعهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل، فقال له بشار: والله لأصلى أكرم من الذهب، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه"^(٤٥) وقد أنكر عليه الشعر بعض الأعراب في مجلس مجزأة بن ثور السدوسي قائلاً: ما للموالي والشعر، فغضب بشار فقال:

خَلِيلِي لَا أَنَامُ عَلَى إِقْتِسَارِ وَلَا أَلْقَى عَلَى مَوْلَى وَجَارِ
سُلْخِيرُ فَاخِرِ الْأَعْرَابِ عَنِّي وَعَنهُ حِينَ بَارَزَ لِلْفَخَارِ
أَحِينَ كَسَيْتَ بَعْدَ الْعُرَى خَزَاً وَتَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ
تُفَاخِرُ يَا ابْنَ رَاعِيَةِ وَرَاعٍ بَنِي الْأَحْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خُسَارِ
وَكُنْتُ إِذَا ظَمِئْتُ إِلَى قَرَاخٍ شَرَكْتُ الْكَلْبَ فِي وَلِغِ الْإِطَارِ
تُرِيدُ بِخَطْبِهِ كِسَرَ الْمَوَالِي وَيُنْسِيكَ الْمَكَارِمَ صَيْدُ فَارٍ^(٤٦)

وهو القائل:

إِنْ كُنْتُ فِي الْعَرَبِ مَذْخُورًا لَدَى نَسَبٍ فَاضْمُمْ يَدَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالْعَرَبِيِّ
إِنِّي أَمْرٌ بَالِغٌ فِي ذُرُوتِي شَرَفٍ لَقِيصْرٍ وَلَكُسْرَى مُحْتَلِي وَأَبْيِ^(٤٧)

أما أبو نواس فقد ظهرت شعوبيته في عدة مظاهر:

(٤٤)

نفسه.

(٤٥)

نفسه ١٠٤٩٣.

(٤٦)

نفسه ١٠١٢/٣.

(٤٧)

نفسه.

أولاً : دعوته إلى تجاوز المقدمة الطللية وابتداء القصائد بالخمير ، فالطلل مظهر عربي والخمير - في تقديره - مظهر عجمي. فكأنما يريد أن يقضي على آثار العروبة ، ويظهر آثار العجم عامة ، والفرس خاصة - يقول :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ واقِفاً ما ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسٌ
اتْرُكِ الرِّبْعَ وَسَلْسَى جَانِباً واصْطَبِحْ كَرْنِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسِ^(٢٨)

فقد رفض الطلل والنسيب جميعاً ودعا إلى مقدمة خيرية ومثله قوله :

لَيْتَكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا لِدُرَّةٍ أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تَرَوْحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ^(٢٩)

وقد منع " درة " من الصرف لأنه جعلها علماً للخمير ، ولا يخفى هاهنا السخرية من الخيام والإبل والشاء !

ثانياً : الإكثار من ذكر كسرى رمزاً لحضارة فارس - يقول عن كأس الخمر :

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَلْوَانِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتْهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابِهَا مَهْأً تَدْرِيبُهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسِ^(٣٠)
ويقول :

بَنَيْنَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ
فَلَوْ رُدُّ فِي كِسْرَى ابْنِ سَاسَانَ رَوْحُهُ إِذْنُ لَأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ^(٣١)
ويقول أيضاً عن الخمر :

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كِسْرَى وَلَمْ تُكُنْ مَوَارِيثَ مَا أَبْقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرٌ^(٣٢)

فقد جعل الخمر تراثاً خالصاً لكسرى ، هذا دعا - فيما يبدو - لابتداء القصائد بها وترك الأطلال والرسوم التي هي آثار عربية.

(٢٨) ديوان أبي نواس - دار صادر - بيروت لبنان - الطبعة الثانية ٢٠٠٥م - ص ٢٢٨

(٢٩) نفسه ص ٧.

(٣٠) الأغاني ٩٨٥٤/٢٩.

(٣١) نفسه ٩٨٦٦/٢٩.

(٣٢) نفسه.

ثالثاً : الهجاء المباشر والانتقاص من مفردات أخية العربية وبيئتها وثقافتها على الجملة - يقول على لسان خمار يهودي :

فَقُلْتُ لَهُ مَا الْأَسْمُ قَالَ سَمُوْعٌ عَلَى أَتْنِي أَكْنَى عَمْرُو وَلَا عَمْرُو
وَمَا شَرَفْتَنِي كُنْيَةً عَرَبِيَّةً وَلَا أَكْسَبْتَنِي لَأَسَاءَ وَلَا فَخْرًا^(٥٣)

على أن أوضح آثاره دلالة على العصبية والانتقاص من قدر العرب والسخرية من مظاهر حياتهم قوله :

دَعِ الْأَطْلَالَ تُسْفِيهَا الْجَنْدُبُ وَتُبْلِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخُطُوبُ
وَحَلْ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضًا تُحِبُّ بِهَا النَّحِيَّةَ وَالنَّحِيبُ
يَلَاذُ نَبْتَهَا عَشْرٌ وَمَطْلَحُ وَأَكْثَرُ حَبِيدِمَا ضَرَعُ وَذِيبُ
وَلَا تُلْخِذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا وَلَا عَيْشًا فَعَيْشُهُمْ جَدِيبُ
دَعِ الْأَلْبَانَ يَشْرَبُهَا رَجُلٌ رَقِيقُ الْعَشِ بَيْنَهُمْ غَرِيبُ
إِذَا رَأَى الْحَلِيبُ قَبْلُ عَلَيْهِ وَلَا تُخْرِجْ فَمَا فِي ذَاكَ حُوبُ
فَأَطِيبْ مِنْهُ صَافِيَةً شَمُولُ يَطُوفُ بِكَاسِهَا سَاقٍ أَدِيبُ

إلى أن يقول :

فَهَذَا الْعَيْشُ لَا خِيَمَ الْبَوَاحِي وَهَذَا الْعَيْشُ لَا اللَّبَنُ الْحَلِيبُ
فَأَيْنَ الْبَدْوُ مِنْ إِيوَانِ كِسْرَى وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ^(٥٤)

خاتمة :

توصل البحث إلى جملة من النتائج نورد بعضها فيما يلي :

- (١) الشعبوية فرقان : فرقة لا تتجاوز مبدأ المساواة بين العرب والعجم ، وهؤلاء ليسوا شعوبيين - في نظر الباحث - بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ، وفرقة أخرى تفضل العجم على العرب فهم الشعبويون حقاً.

(٥٣) نفسه ٩٩٨٤/٢٩.

(٥٤) ديوان أبي نواس ص ٢٥-٢٦.

- (٢) تعد الشعوبية مظهراً من مظاهر البحث عن الذات لدى الأمم التي تغلب عليها العرب ، وذلك من خلال استدعاء الأجداد الغابرة من سير الملوك وأخبار المدينيات والدول.
- (٣) أقوى دواعي الشعوبية هي العصبية سواء من العرب أو من الموالى. على أن عصبية العرب كانت أقوى وأظهر ، وكان من الأولى أن يطلق لفظ الشعوبية على متعصبي العرب أسوة بأمثالهم من الموالى.
- (٤) كثير مماعد مظاهر للشعوبية ليس منها وإنما يدخل في باب الدعوة إلى المساواة أو الدفاع عن النفس أو الهجاء المتبادل أو ترك الولاء...إلخ.
- (٥) اتخذت الشعوبية أدوات قوية مثل تصنيف الكتب ، من قبل علماء ذوي خطر ، في مثالب العرب أو مناقب العجم ونظم الشعر من قبل شعراء مميزين.
- (٦) بعض الشعوبيين أعظم خطراً من بعض ، فقد وجدنا بشاراً - مثلاً - ظاهراً الشعوبية يسهل الرد عليه على حين ذهب أبونواس - مثلاً - مذهباً خفياً قد لا ينتبه له. فقد تشعب من خلال رفض المقدمة الطللية والدعوة إلى الابتداءات الخيرية كما قدمنا.
- (٧) ترتبت على الشعوبية عواقب وخيمة على العرب خاصة إذ كان من نتائجها قيام الدولة العباسية التي كانت - إلى حد كبير - أعجمية فارسية. ثم انتصار الأمين على المأمون التي عدت نصرة ثانية للموالى قضت على ما تبقى للعرب من نفوذ في الدولة العباسية.

مصادر البحث :

- (١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي بشرح إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي - بيروت لبنان - (د ت) (د ن) ج ٣.
- (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان - (د ت).
- (٣) لسان العرب لابن منظور - دار المعارف - مصر - (د ت).
- (٤) الفهرست لابن النديم - ضبط وشرح د يوسف الطويل - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان (د ت).
- (٥) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - تحقيق إبراهيم الأبياري مؤسسة دار الشعب ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- (٦) ديوان أبي نواس - دار صادر بيروت لبنان - طبعة ثانية ٢٠٠٥م.
- (٧) ضحى الإسلام لأحمد أمين - دار الكتاب العربي بيروت لبنان - طبعة أولى ٢٠٠٥م ج ١/.
- (٨) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق فوزي عطوي - دار صعب بيروت لبنان (د ت).
- (٩) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري - دار الفكر بيروت لبنان ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م المجلد الثالث.
- (١٠) القاموس المحيظ للفيروز آبادي - دار الجيل بيروت لبنان (د ت).
- (١١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي - أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي - المكتبة العلمية بيروت لبنان (د ت) المجلد الأول.

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث قضية الشعوبية بمقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو التالي :
تعرض المقدمة لتعريف مصطلح الشعوبية ثم تتطرق لأهم الحجج التي استندت عليها الشعوبية في دعوى تفضيل العجم على العرب.
يتناول المبحث الأول دواعي الشعوبية والعوامل التي أدت إليها فهي ترجع على الجملة إلى العصبية من كلا الجانبين العرب والموالي.
يتناول المبحث الثاني أدوات الشعوبية التي تلخص في تصنيف الكتب ونظم الأشعار . وتشتمل الخاتمة على أهم النتائج.

Abstract:

This research discusses the issue of 'shuoubiya' (a movement the era of early Islamic Commonwealth of Nations, which refused to recognize the privileged position of Arabs). It comes in an introduction, two chapters and a conclusion, as follows:

The introduction presents a definition of the term 'shuoubiya', then discusses the major arguments on which the shuoubiya supporters base their preference of 'Ajam' (non-Arabs) over the Arabs. Chapter one deals with the root causes and factors that led to the presence of shuoubiya, which can generally be attributed to racial biases on both sides : Ajam and Arabs.

Chapter two tackles the tools of shuoubiya, which include writing books and poetry.

The conclusion includes the most significant of the study findings.